الفصل الخامس عشر

نحو بلورة الجدل

في عام ١٩٦٦، وقف "تيودور ماركار" – رئيس مكتب الاتصال الألماني الغربي – مخاطبا مجموعة من الأتراك كانوا على وشك مغادرة اسطنبول للعمل في كولونيا بألمانيا الغربية، حيث أرسلها نبوءة: "إن الكثير منكم سيعمدون إلى إرساء حياة جديدة في ألمانيا، حيث ستضعون جذورا لكم ... أما أوطانكم الأم فلن تزوروها إلا بصفتكم ضيوفا عليها".

obeikandl.com

حين قيلت الكلمات السابقة، قليل هم من وافق عليها سواء من الأتراك أو من الألمان. أما الأتراك، فكانوا يلبون حاجة الألمان الغربيين الماسة إلى العمالة ... تلك العمالة التى كانت المعجزة الاقتصادية الألمانية فى أمس الحاجة إليها. وكانت نسبة البطالة بين صفوف الألمان الغربيين – آنذاك – صفرا ... حيث كانت الشركات آخذة فى التوسع باطراد. ففى أثناء تلك الحقبة التى سبقت ظاهرة "العولمة" – تلك الظاهرة التى أتاحت للشركات الانتقال بين أرجاء المعمورة لتدشين المصانع إلى جوار أماكن تجمع العمالة، والأسواق ... كانت الشركات فى ألمانيا الغربية بحاجة إلى عمال للعمل بمصانع تلك الشركات فى ألمانيا نفسها. هذا، وكانت ألمانيا قد جلبت بالفعل عمالا من إيطاليا وإسبانيا واليونان، كذا، فإنها ستقوم بالأمر ذاته فى السنوات اللاحقة حيث ستجلب عمالا من البرتغال وتونس والمغرب ويوغوسلافيا. وعلى أية حال، فإن "العمال الضيوف"

كانوا يعدون عمالة مؤقتة – إذ كانوا يخضعون لحركات إحلال بعد قدومهم من أوطانهم الأم بأعوام قلائل.

كذا، فإن العمال الأتراك كانوا يدركون أنهم يمثلون عمالة مؤقتة ... أولئك العمال الذين قدم معظمهم من المناطق غير الصناعية بتركيا، وبخاصة من المناطق الريفية الشاسعة بوسط الأناضول. وكان العمل فى ألمانيا الغربية يمثل فرصة العمر بالنسبة لهم ... حيث الأعمال والوظائف التى ترعاها نقابات العمال بألمانيا، تلك الوظائف التى يمكن أن تؤمّن لهم، كعمالة غير ماهرة، أضعاف الأموال التى بمقدورهم أن يتحصلوا عليها فى بلدهم الأم. إن أهداف أولئك العمال كانت بسيطة تمثلت فى مساعدة عائلاتهم، وربما إمكانية التقاعد ذات يوم فى إقليم "البحر الأسود" فى مسكن يتم بناؤه باستخدام المدخرات التى جمعوها أثناء عملهم بألمانيا الغربية. وبالفعل، فقد كان أولئك العمال يحيون حياة بسيطة

ويرسلون مدخراتهم إلى الأهل بالوطن ... فما من أحد قد راودته فكرة بناء مسكن له فى الأراضى الألمانية.

وعلى مدار الأعوام، أضحى مفهوم "العمال الضيوف" وقد فقد بريقه ... إذ شكا أصحاب الأعمال من ارتفاع نفقات تدريب العاملين الجدد، فضلا عن أن العمال كانوا يريدون أن يبقوا فى ألمانيا. لذا، فقد تم حلحلة الضوابط المنظمة بعض الشىء، فكان أن سمح لقوة العمل الأجنبية بالبقاء فى ألمانيا بدلا من الحركة الدائرية للقدوم والارتحال. وبالإضافة إلى ذلك، فقد سمحت حكومة ألمانيا الغربية للعمال باستقدام عائلاتهم إلى ألمانيا. وحين أوقفت ألمانيا الغربية جلبها للعمالة عام ١٩٧١، كان أكثر من ٧٠٠٠٠٠ تركى يعيشون بالفعل على أراضيها. وفى السنوات اللاحقة، استمرت حركة الهجرة إلى ألمانيا إذ سمح للأتراك بالسفر إلى ألمانيا الغربية للانضمام إلى أفراد العائلة الذين يحيون هناك. وللمرة الأولى فى تاريخ ألمانيا، كانت أعداد كبيرة من المسلمين قد استقرت بها. أما اليوم، فإن عدد المنتمين إلى أصول تركية - والذين يحيون فى ألمانيا - يبلغ نحوا من مليونى نسمة أغلبهم من المسلمين. كذا، فإن نحوا من ١,٥ مليون مسلم من بلدان أخرى، وبخاصة البوسنة وبلدان المغرب العربى، يعيشون الآن بها.

وعلى امتداد أوروبا، توجد أشباه ونظائر لتلك السمات الديموغرافية. فعصر الفتوحات الإسلامية الكبرى قد خلف العديد من المسلمين على أطراف القارة، فى كوسوفو والبوسنة، وكذا فى شبه جزيرة القرم ... كذا، فقد حكمت الدولة الأموية لقرون طوال ما كان يعرف آنذاك بالأندلس (إسبانيا والبرتغال حاليا). كان للاحتكاك مع العالم الإسلامى أثر عميق، إذ أعاد إلى المشهد الغربى الأعمال التى أنجزت فى مجالات العلوم والآداب والفلسفة والرياضيات، والتى فقدت حين

انهيار الإمبراطورية الرومانية، ذلك كونها قد حفظت في المكتبات الإسلامية الكبرى. أما منذ القرن الخامس عشر الميلادى فى أعقاب سقوط آخر معاقل المسلمين فى غرناطة على أيدى الإسبان عام ١٤٩٢ ... فكان الغرب الأوروبى بأكمله يكاد يخلو من المسلمين ... أولئك الذين كان ينظر إليهم - فى بعض الأحايين - نظرة فزع واستغراب. إلا أنهم قد أضحوا - لاحقا - موضع هوس محموم. وفيما بعد أصبح المسلمون موضع افتتان بعد أن اشتهروا بحريمهم وعمائمهم وسجاجيدهم الطائرة فى أعقاب ترجمة ألف ليلة وليلة.

أما بعد موجات الهجرة التى أعقبت نهاية الحرب الكونية الثانية، فقد ظلت الصورة الذهنية عن المسلمين قائمة، إلا أن المسلمين كانوا - آنذاك - يحيون بالفعل فى قلب أوروبا الغربية. هذا، وقد دفع الاقتصاد، مثلما كانت الحال فى ألمانيا الغربية، ببلدان أوروبا الغربية إلى استجلاب العمالة من الخارج ... حيث فضلت بعض الدول جلب عاملين من مستعمراتها السابقة، حيث لم يكن الأمر يعنى بالضرورة أن يكون أولئك العاملون من المسلمين، وذلك كما حدث حين تم جلب "الهندوس" من شبه القارة الهندية إلى بريطانيا، أو جلب المسيحيين والأرواحيين[١٠٤] من وسط إفريقيا باتجاه بلجيكا. بيد أن جل المهاجرين كانوا من المسلمين. وحين فصل الستار الحديدى بين غرب أوروبا وشرقها ... صار "المنجم" الذى يُجلب منه العمال من ذوى الأجور المتدنية يقع إلى الجنوب من البحر المتوسط، فى بلدان المغرب العربى بشمال إفريقيا ... فضلا عن تركيا.

أما فى فرنسا، فقد كان لانتهاء الحقبة الكولونيالية والحرب الأهلية الجزائرية أثر فى زيادة أعداد المسلمين بها من حجم لا يذكر قبل الحرب الكونية الثانية إلى أكثر من ٤ مليون مسلم اليوم ... ووفقا لبعض التقديرات، فإن عدد المسلمين اليوم بفرنسا يبلغ ٦ ملايين، أو ما نسبته ١٠٪ من إجمالى تعداد السكان بها. (فى

فرنسا وبعض البلدان الأوروبية، لا يسأل القائمون على تعداد السكان عن ديانة المرء أو انتمائه العرقي). أما في بريطانيا، فإن المسلمين الذين قدموها خلال الحقبة الكولونيالية – وكانوا تجارا في الأغلب – قد كونوا تجمعات خاصة بهم. وفي أعقاب الحرب الكونية الثانية، اشعلت الحرب الأهلية في شبه القارة الهندية شرارة موجات متعاقبة من الهجرة كانت أشبه بالطوفان. وقد تزايدت أعداد المسلمين في بريطانيا، من ٢٣٠٠٠ مسلم فقط عند نهاية الحرب الكونية الثانية إلى ٣٦٠٠٠٠ مسلم عام ١٩٧١، لترتفع الأعداد لتبلغ مليوني مسلم اليوم. أما في غرب أوروبا بأكمله، فإن أعداد المسلمين تتراوح ما بين ١٥ مليون و٢٠ مليون مسلم، ويمثل هذا أربعة أمثال عدد المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي يبلغ عدد سكانها – على نحو التقريب – عدد سكان ذلك الغرب الأوروبي.

وفي البداية، لم يضطلع الدين بدور رئيسي في الحياة اليومية للعمال الضيوف. إذ عمدت الشركات إلى التواؤم مع الدين المعتنق من قبل العمال الجدد، حيث قامت بإنشاء بعض المواضع كيما يتمكن أولئك العمال من تأدية صلواتهم بها. ففي عام ١٩٦٥، على سبيل المثال، قام مصنع راينهارت وماكس مانيسمان لصهر المعادن في "ديوزبورغ" بوادي "الرور" بألمانيا بإنشاء أماكن لتأدية الصلاة. أما العامل الذي يأنس فيه زملاؤه حلاوة في الصوت وعلما دينيا يبز به أقرانه ... فيعمدون إلى جعله إماما يؤمهم في الصلاة. إلا أنه وبمرور الزمن، زادت الرغبة في التمتع بحياة دينية اعتيادية. هذا، ولم يكن أغلب المهاجرين المسلمين من ذوي اليسار بما يمكنهم من بناء مساجد لهم ... لذا، فقد عمدوا إلى استئجار مساحات قد خصصت لأغراض تجارية بعينها، ثم تحويلها أماكن لتأدية الصلوات. وعادة ما تنهض تلك الأماكن – التي لا تكاد تلحظ – دليلا على التمييز عند معاملة المسلمين، وذلك على نحو سلبي. ونظراً لكون

الحكومات قد قامت بعرقلة الجهود الرامية إلى بناء مساجد كبيرة، فإن المهاجرين كانوا (وما يزالون) يرتقون أولى درجات السلم الاقتصادى، ومن ثم افتقارهم للتمويل اللازم لبناء مساجد كبيرة.

وفيما اختص بجماعات عديدة، فإن الدين كان ما يزال مرتبطا بأرض الوطن الأم. فالأتراك فى ألمانيا قد جلبوا معهم جماعات ذات أفكار دينية بعينها مثل الطريقة السليمانية[١٠٥]، وأتباع نجم الدين أربكان. أما أتباع الطريقة السليمانية، فكانوا نخبة من الأتقياء المحافظين الذين أسسوا "اتحاد المراكز الثقافية الألمانية" فى عام ١٩٧٣، والذى ينظم دروسا لتعليم القرآن الكريم للصغار. أما أتباع نجم الدين أربكان، فقد أنشأوا الحزب الدينى القومى "ملى غوروش"، ومعناها ... "الرؤية الوطنية" – ذلك الحزب الذى عمد إلى تنشئة نشطائه وأنصاره وتربيتهم على أفكار جماعة "الإخوان المسلمين". وفى تركيا، عمدت الدولة إلى الحد من أنشطة تلك الجماعات ... أما فى الغرب، فقد تمتعت بحرية الحركة نظرا لكون الفكر الدينى هناك غير مقيد أو مطوق. وخوفا من انتشار الهوس الدينى فيما بين أتراك ألمانيا، وخوفا من إمكانية أن تغزو المشكلة تركيا ذاتها ... عمد المسئولون الأتراك إلى إنشاء منظمة أطلق عليها اسم "الاتحاد التركى للديانات" – وهو فرع من "الإدارة العليا للشئون الدينية فى تركيا – ديانت أشلرى". وعلى مدار سنوات عديدة، قام "الاتحاد التركى للديانات" بتمويل العديد من المساجد الكبيرة فى ألمانيا ورفدها بالأئمة والدعاة. ففى عام ٢٠٠٧ وقعت الحكومتان الألمانية والتركية معاهدة لإضفاء الصفة الرسمية على الأمر. أما فى البلدان الأوروبية الأخرى، فكان الأمر مشابها لما حدث فى ألمانيا ... ففى فرنسا، يترأس موظف حكومى جزائرى "الجامع الكبير" فى باريس – أما بريطانيا، فتحوى العديد من المساجد المتسمة بالفخامة والأبهة، والتى يقوم بتمويلها شيوخ وأمراء من بلدان الخليج العربى. هذا، وكان

المهاجرون إلى أوروبا يحتاجون - فيما مضى - عقودا طويلة لترك بصمتهم المعمارية هناك ... أما فى أوروبا القرن العشرين، فقد اتسم الأمر بإنجازه فى وقت قصير.

تنبه العالم الإسلامى إلى ذلك التحول الديموغرافى. فحينما حطّ سعيد رمضان فى أوربا لأول مرة فى خمسينيات القرن العشرين، كانت أوربا ملاذاً، ذلك لكونها ليست جزءاً من العالم الإسلامى، من ثم، كانت منفصلة وآمنة، وكان تكوين التنظيمات هناك رد فعل على القمع فى الوطن. بيد أنه، ومع تزايد عدد السكان المسلمين هناك، استردت أوربا وضعها كجزء من العالم الإسلامى.

كانت أوربا، ولوقت طويل تعتبر "دار حرب" عند المسلمين، لكن هذا الوضع انتفى عنها فى وجود ملايين المسلمين بها. وسواء عُزى الأمر إلى مجرد الحظ أو إلى نفاذ البصيرة، كانت الجماعة قد وطدت أقدامها هناك عند حدوث ذلك التغير.

فى فندق صغير على أطراف العاصمة البريطانية، وقف الدكتور محمد محمود الهوارى يوجه كلمته إلى الحضور باجتماع المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث، والذى امتدت أعماله فى الفترة ما بين الثامن والثانى عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٤. أما الحضور، فكانت مهمتهم مساعدة مسلمى أوروبا فى الاندماج فى المجتمع الغربى عن طريق إحداث نوع من التواؤم فيما بين ما تقتضيه الشريعة الإسلامية وبين القوانين الوضعية ذات الصبغة العلمانية السائدة فى المجتمعات التى يحيون بها. ونظرا لكون الإسلام ينظم الكثير من الأمور الدنيوية - مثل الأمور المالية، ومواقيت الصلاة، والطعام المباح أكله ... فإن الحاجة لتعن إلى إسداء نصائح عملية محددة فى هذا الشأن على نحو أكثر من أى من الأديان الأخرى. هذا، وتتراوح الأسئلة لتشمل تلك التى على شاكلة: هل يمكن للمرء أن يتعامل مع البنوك

أو صناديق التقاعد التي تنبني على نظام "الفائدة" – تلك المحرمة في الإسلام كونها ضربا من ضروب الربا؟ أو متى تكون صلاة المغرب – خلال الانقلاب الصيفي في شمال اسكندنافيا؟ أو ما العمل لو كان المرء جائعاً ولم يجد طعاماً حلالاً؟

في الاجتماع المذكور، قرر الحضور تناول الحياة العائلية بالبحث والتشاور. وكان "الهواري"، ذلك العالم المرموق الذي يحيا في مدينة "آخن" الألمانية، يناقش مشكلة هامة ومألوفة لدى كل أب أو جد في العصر الحديث، ألا وهي مشكلة "الجنس". ووفقا للهواري ذي الثلاثة والستين عاما، فإن أطفال المسلمين قد حوصروا بالثورة الجنسية في الغرب، إذ تعين عليهم أن يبقوا أطهارا ذوي عفة بألا يمارسوا الجنس، بل ينتظرون حتى يشبعوا غرائزهم ورغباتهم الجنسية بعد الزواج. وكان الأمر مطلبا عاديا والتماسا للأخلاق الحميدة، يمكن سماعه بصورة متواترة داخل المساجد والكنائس والمعابد ... على امتداد العالم بأسره.

ثم انعطف النقاش إلى نقطة حرجة تمثلت في السبب وراء تلك الثورة الجنسية ... ليعلن الهواري أن السبب يكمن في أنشطة اليهود ومساعيهم، حيث إن لديهم مخططات سرية للسيطرة على العالم عن طريق إضعاف الروابط العائلية لدى أتباع الديانات الأخرى. هذا، وقد أعلن الهواري للحضور أن ذلك ليس تكهنا أو رجما بالغيب من جانبه، وإنما كان دليله ... كتاباً ... أخذ يردد بعض عباراته على مسامعهم.

أما الكتاب، فكان "بروتوكولات حكماء صهيون" ... الذي قرأ الهواري منه الفقرة التالية: " ... وعلينا إغواء الناس بالخمر والمجون المبكر عن طريق وكلائنا وتابعينا من المعلمين، والخدم في البيوتات الغنية، والنساء في أماكن اللهو، بالإضافة إلى من يسمين (نساء المجتمع) والراغبات من زملائهن في الفساد والترف ... يجب أن

نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه ...".

وفى الاجتماع المذكور، تناول أعضاء "المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث" سلسلة من الأسئلة التى طرحها عدد من مسلمى أوروبا عليهم. هذا، ويعد المجلس الكيان الأكثر نفوذا فى تشكيل التوجهات الإسلامية فى أوروبا، وكذا فى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال مؤسسة شقيقة. ويعمد المجلس إلى تحديد مسار الحوارات الدينية، وكذا تعريف المسلمين هناك بما يحل لهم فى دينهم وما يحرم عليهم. إلا أن مشورته ليست ملزمة رغما عن انتشارها على الانترنت وعلى صفحات الكتب التى توزع على المساجد على امتداد القارة الأوروبية. أما الأئمة والدعاة فيتلقون دورات تدريبية فيما يتبناه المجلس من نهج تفكيرى، ويتم توجيههم نحو اعتماد اقترابات التحاورية حين يعمد أولئك الراغبون فى الفتيا إلى طرح أسئلتهم عليهم.

وقد يذهب المرء إلى الجدل فى أن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا" و"المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث" وغيرهما من الكيانات المماثلة هى تجمعات للأقلية. إذ إن بكل مجتمع جماعات مشابهة كالمينونايت والآميش فى الولايات المتحدة الأمريكية[١٠٦] ... حيث يعيش أفرادها وفقا لقوانين تهدف إلى إحياء ماض مثالى لا يمت بصلة إلى الواقع المعاش. إذا، فماذا يضير لو أن بعضا من الإسلاميين جاهدوا لخلق جماعة مماثلة لأنفسهم؟ قد تكون المقارنة سليمة وفى محلها ... إلا أنه بأخذ أعداد المسلمين ممن يهاجرون إلى أوروبا فى الحسبان، فسيختلف الأمر تماما. فالمجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث لا يضع القوانين المنظمة لجماعة من الأقليات الهامشية غير ذات الشأن، بل يقوم بتحديد المعايير الحاكمة

التى تستهدف عشرات الملايين من المواطنين الأوروبيين ... أولئك الممثلين لثانى أكبر ديانة من حيث الانتشار فى أوروبا.

فى داخل مسجد صغير على أطراف العاصمة الفرنسية، باريس، أخذ "مراد عمرو" يلهب مشاعر الجمع المحتشد بخطابه الحماسى فى أعقاب صلاة العشاء ... "غير بعيد من هنا ثمة مسلمون ومسلمات يعاقرون الخمر"، قالها ذلك الداعية البدين ذو الستة والعشرين ربيعا، والذى كان مغنيا للراب فيما مضى. "هل يعقل هذا؟ هل يعقل أن يغشى هؤلاء الأندية الليلية والحانات ... بالله هل ترضون بأمر كهذا؟!"

وفيما كان "عمرو" يكمل خطابه، علت همهمات الاستنكار والاستهجان من الجموع المحتشدة ... فمضى الداعية الشاب يقول: "يجب أن تتمحور الحياة بأسرها حول المسجد، ليس فقط للصلاة ... بل فى كل شاردة وواردة – من فصول تعليم اللغة للأطفال إلى الحياة الاجتماعية للمسلمين – هذا، وإلا سيضحى المسلمون هم وجيرانهم الفرنسيون سواء بسواء، إذ لن يكون، حينها، ثمة شىء يميزهم. إن المجتمع يجب أن ينبنى وفقا لأسس الإسلام وأركانه".

و"مراد عمرو" هو شاب مسلم تعرفت إليه وامتدت رفقتنا لبضعة شهور ... هذا، ولم يعمل "عمرو" باتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا، بل اختلف إلى مكاتبه لتلقى التدريبات والتواصل مع نشطاء آخرين. كذا، فإن الرجل يواظب على الاطلاع على مقررات المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث وجديد فتاواه، معتبرا "يوسف القرضاوى" أبرز المفكرين المعاصرين دراية وعمقا. ويعيش "عمرو" بمعزل عن المجتمع الفرنسى حيث يذرع "باريس" مستخدما عربته الصغيرة من طراز "فيات Punto" خلال تطوافه بطريقها الدائرى.

فى ذلك اليوم، كان "عمرو" فى ضاحية "أوبرفيلييه" العشوائية لإجراء "مداخلة

سريعة"، وهو المصطلح الذي يطلقه على خطبه الحماسية لحشود الجماهير لمناصرة الشأن الإسلامي. وقبل أن يدلف إلى المسجد، داعب "عمرو" خصلات شعر طفلين يرتديان "الكوفية" الفلسطينية المميزة بلونيها الأبيض والأسود، ويجمعان تبرعات لإحدى الجمعيات الخيرية التي ترعى أيتاما فلسطينيين.

يقول الداعية الشاب: "إنني أختلف إلى مساجد كثيرة لأداء الصلاة ... كذا، فإنني أغشى الجموع الحاشدة بالمساجد لإلقاء كلمة هنا وخطبة هناك ... وهلم جرا. إنني دائما وكأنما على سفر وترحال ما بين هذا المسجد أو ذاك - ليل نهار. كذا، فإنني أجل "اتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا" ويعجبني ما يقوم به من أدوار ومهام ... إذ أعرف بعضا من قياداته وجانبا من جهودهم".

هذا، وقد نشأ "مراد عمرو" في باريس، وهو الابن الأصغر ضمن تسعة أبناء لمهاجرين جزائريين. وقد أدمن "عمرو" تعاطي المخدرات وأصدر ألبوما لموسيقى وأغاني الراب ... تلك المنتشرة في أوساط قاطني الإسكان الشعبي والعشوائيات. كذا، فقد أمضى بعضا من وقت خلف القضبان. ومنذ أعوام خمسة، اهتدى "عمرو" ليترك حياة "الشارع" تلك، ويعود إلى حظيرة الإسلام وذلك بفضل أحد أعضاء "جماعة التبليغ" - وهي جمعية دعوية لا سياسية. وما يزال "عمرو" يرتدي ذلك النوع من الكنزات المقلنسة السميكة التي تعود إلى فترة ما قبل "الهداية" إلى سبيل الرشاد .. إلا أن بعضا من توازن قد وفره غطاء للرأس أو "الطاقية"، وفي بعض الأحيان، عباءة قطنية غير سابغة تنحسر لتكشف عن ساقيه.

كان خطاب "مراد عمرو" للحشود مقتضباً موجزاً، بيد أنه كان غاية في التأثير إذ ألهب مشاعرهم ... وقد استدعى قصته مع المخدرات والليالي التي أمضاها في "البدروم" خشية والديه. وهنا طفق رجل في الصف الأول من الحشد يبكي ...

فلربما قد ذكرته الكلمات بعضو من العائلة – قد يكون ابنا له أو نحو ذلك. ثم اتبع "عمرو" ذلك بشن هجوم انتقد فيه المسلمين الذين ضلوا السبيل وتنكبوا جادة الطريق ... أولئك الذين يمضون أعمارهم فى الحانات والمراقص والمواخير بين رقص ومجون وعلاقات خارج دائرة الزواج، فضلاً عن النساء اللاتى لا يلتزمن بالاحتشام والزى الشرعى ويقمن علاقات مع رجال غرباء. هذا، وقد أنصت الجمع – وقوامه مائة وخمسون – ليهمهموا بين الحين والآخر بما يدل على القبول والاستحسان. وفى نهاية الكلمة، قوبل الداعية الشاب بعاصفة مدوية من التصفيق وودعه الجمهور بكوب من الشاى وقليل من حلوى ... ليثب بعد ذلك فى سيارته "الفيات" قاصدا بيته – إذ كانت العاشرة مساء ... إذا، فسيكون محظوظا إذا نال قسطا من ساعات ست ينامها قبل صلاة الفجر ليصحو وينجز بعض أعمال – ثم ينطلق فى جولة تلو الأخرى.

إن مهام نشطاء جماعة "الإخوان المسلمين" من أمثال "مراد عمرو" قد تسارعت وتائرها خلال تسعينيات القرن العشرين لتمتد إلى سنوات القرن الجديد ... تلك المهام التى استترت عن العامة قد أسهمت فى تحديد هيكل الإسلام فى القارة الأوروبية. إلا أن خطبا جللا قد قلب الأمور رأسا على عقب ... إنها أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، والتى أشارت أصابع الاتهام بشأنها إلى شبكة "الإخوان المسلمين" الأوروبية. وبعد عقود طويلة من النشاط الخفى ... أضحت "الجماعة" محورا للاهتمام ثانية.

خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته، وضعت الاستخبارات الألمانية نصب عينيها كلا من الجنود السابقين، والطلبة العرب، والمسلمين الساعين إلى السيطرة على مشروع مسجد ميونيخ ... حيث عمدت إلى مراقبتهم والتحرى عنهم. أما المكتب الاتحادى لحماية الدستور/ فرع ميونيخ، والذى عهد إليه بمهمة مراقبة

"التطرف الداخلي" لكبح جماحه ... فقد عمد إلى تمويل "غرهارد فون منده" ليقوم بمراقبة لجنة بناء المسجد مراقبة لصيقة. إلا أن تلك الرقابة لم تعد قائمة، وذلك فى أعقاب وفاة "فون منده". لذا، فلم تنتبه ألمانيا الغربية إلى تحول "المركز الإسلامى فى ميونيخ" إلى بؤرة، بل بوتقة للنشاط الإسلاموى على امتداد العالم بأسره.

من القلائل الذين كانوا لصيقين بمشروع المسجد ممن لقوا اهتماما من الخارج، يبرز "أحمد فون دنفر" ... الذى كان محررا لمجلة "الإسلام"، لسان حال مسجد ميونيخ والناطقة باسمه هو و"التجمع الإسلامى بألمانيا". والمجلة، التى أسسها "أحمد شميده" فى الخمسينيات، قد آلت إلى المسجد حيث أديرت بواسطة "شميده"، ثم "فون دنفر" حتى عام ٢٠٠٣ – حين توقفت عن الصدور أصبحت موقعاً الكترونيا الآن. أما "فون دنفر" فكان متأثرا للغاية بخورشيد أحمد الذى ورد ذكره آنفا ... حيث التقاه "فون دنفر" بعد انضمامه إلى مجلس إدارة المسجد فى بداية الثمانينيات. وقد ارتحل "فون دنفر"، لاحقا، إلى بريطانيا للدراسة بالمؤسسة الإسلامية بليستر، والتى تأسست عام ١٩٧٣ ... حيث قام بكتابة عدد من المؤلفات بالإنكليزية والألمانية ... مؤلفات تعكس الفكر الإسلاموى التقليدى القائل بأن "الإسلام هو الحل". وفى الخامس من نيسان/ أبريل ١٩٨٥، اشترك "فون دنفر" فى تأسيس جمعية خيرية، هى "جمعية الإغاثة الإسلامية" فى "لوتسيلباخ" -- وهى بلدة صغيرة بالقرب من "فرانكفورت" التى احتضنت تنظيما آخر هو "دار الإسلام" الذى يرتبط العاملون به بعلاقات مع مسجد ميونيخ ... أما "جمعية الإغاثة الإسلامية"، فقد قامت برفد أفغانستان بالأموال والمؤن، إلا أن "فون دنفر" كان قد أنكر ضلوع الجمعية فى تمويل مجاهدى أفغانستان، بيد أنه فى تلك الأثناء كانت الجمعيات الخيرية الأفغانية – ومقرها باكستان – رديفا للجهاد (أو الحرب المقدسة). وللمرة الأولى خلال عقدين كاملين، تعمد الاستخبارات الألمانية إلى إخضاع مسجد ميونيخ

لرقابتها غير الرسمية.

وسرعان ما أشارت دلائل أخرى إلى أهمية مسجد ميونيخ. ففى عام ١٩٩٠، زعم "محمد سالم عبد الله" – كبير مسئولى أرشيف منظمة العالم الإسلامى أن هذا المسجد هو الموضع الذى تصاغ فيه سياسات العالم بأسره ... وهو الزعم الذى قوبل بعاصفة من التوبيخ الحاد من قبل مجلة "الإسلام". أما "أحمد فون دنفر" وآخرون قريبون من المركز الإسلامى بميونيخ، فقد شاركوا فى مؤتمرات بالخارج جمعتهم بقادة "الإخوان المسلمين" المرموقين، وكذا المؤتمر الذى عقد فى السودان تحت رعاية الدكتور حسن الترابى ... ذلك الإسلاموى الداهية. كذا، فقد وقع المركز فى خلاف مع "معهد الشرق" فى هامبورغ، وهو واحد من أبرز مراكز الدراسات الإسلامية فى ألمانيا.

وفضلا عما سبق، فقد كان لمسجد ميونيخ ارتباطات مريبة بظاهرة الإرهاب، بالرغم من أن حوادث الإرهاب قد تم النظر إليها – آنذاك – على كونها أحداثا عابرة فردية أو نتيجة لمصادفة محضة. وفى ثمانينيات القرن العشرين، كان "محمود أبو حليمة" يختلف إلى مسجد ميونيخ – على نحو منتظم – التماساً للمشورة الروحانية من "أحمد محمود خليفة"[١٠٧] – رئيس المركز الإسلامى حينذاك. ولم يلبث "أبو حليمة" أن غادر ميونيخ قاصدا الولايات المتحدة الأمريكية حيث دين واعتُقل لتورطه فى محاولة تفجير مركز التجارة العالمى فى عام ١٩٩٣ . أما "ممدوح محمود سالم"[١٠٨] – الذى شاع أنه الممول الرئيسى لتنظيم القاعدة والمعلم الشخصى لأسامة بن لادن ... فقد تم القبض عليه فى عام ١٩٩٨ فى بلدة صغيرة بالقرب من المسجد أثناء رحلة عمل له فى ألمانيا. وقبل تسليمه إلى الولايات المتحدة، اتصل سالم بخليفة طلبا لاستشارة "روحانية" (تم محاكمة سالم لاحقا وعوقب باثنتين وثلاثين سنة فى السجن). أما خليفة، فقد أكد لقاءه بكل من سالم وأبى

حليمة قائلا إن ذلك كان من سوء الطالع، إذ ما كان له أن يتبين كل عابر نظرا لأن مشورته متاحة للجميع.

كانت الاستخبارات الألمانية، منزعجة حيث أجرت تحقيقا شاملا موسعا بشأن "معارف" سالم. ومن بين جميع أولئك "المعارف"، برز اسم واحد ذو دلالة ... "مأمون دركزنلي"[١٠٩] - وهو رجل أعمال سورى يقيم فى "هامبورغ" حيث كان يواظب على الاختلاف إلى مسجد صغير هناك، هو مسجد "القدس". وعليه، فقد داهمت الشرطة الألمانية، منزل "دركزنلي" فى بحثها عن قائمة بمعارفه المنتمين إلى مسجد "القدس"، حيث وجدت اسم رجل بعينه هو "محمد عطا"[١١٠]. وفى أعقاب ذلك، لم تكن الشرطة الألمانية واثقة مما فى حيازتها ... لذا، فقد عمدت إلى إسقاط التحريات وإيقافها. وبعد ذلك بعامين، وتحديدا فى الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ - كان "محمد عطا" يقود الطائرة الأولى التى فجرت أحد برجى مركز التجارة العالمى. هذا، وقد كشفت التحريات عن كون مسجد "القدس" هو البوتقة التى شهدت "ردكلة" من قاموا بالتفجير. أما "دركزنلي"، فلم يحاكم ألبتة، إلا أنه كان "حلقة وصل" شائنة ربطت ما بين المركز الإسلامى بميونيخ وبين قوى الإرهاب والتطرف.

ونظرا للصدمة المروعة التى لحقتها نتيجة هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، عمدت الحكومة الأمريكية إلى تكثيف هجومها على جماعة "الإخوان المسلمين" ... إذ اهتم المحققون، على نحو بالغ، بإحدى قاطرات "يوسف ندا" الاستثمارية - ألا وهو "بنك التقوى"، والذى كان "غالب همت" يترأس مجلس إدارته، وقد بدا أنه ما من "إسلاموى" فى أوروبا إلا كان قد اشترى أسهما به بما جعل قائمة حملة أسهمه "ثبتا" يحوى أسماء "الإخوان المسلمين" فى أوروبا. هذا، وقد أرسى "ندا" البنك كأحد أوائل البنوك التى تعمل بالتوافق مع مقتضيات

الشريعة الإسلامية. فبدلا من القيام بمنح المودعين "فائدة بنكية" لقاء ودائعهم به ... عمد "بنك التقوى" إلى اعتبار عملائه مستثمرين ومنحهم أرباحا من الأموال التى يقوم بإقراضها. إلا أن "ندا" لم يستثمر أموال البنك على نحو محترف - إذ صرح "ندا" نفسه بأنه استثمر معظم تلك الأموال فى مشاريع ماليزية قبيل الأزمة المالية الآسيوية (١٩٩٧) مباشرة - فأصاب البنك ضرر بليغ وأعلن إفلاسه. أما المحققون الأمريكيون، فأعلنوا أن "بنك التقوى" كان مضخة لتمويل الإرهاب، فيما أعلنت الولايات المتحدة أن كلا من "غالب همت"، و"يوسف ندا" هما ممولان للأنشطة الإرهابية، وهو الأمر الذى صادقت عليه الأمم المتحدة ... ليتم تجميد الحسابات البنكية لكليهما.

أما التجمع الإسلامى بألمانيا، فقد واجه أزمة مالية مفاجئة. فباعتباره المسئول المالى للتجمع، كان "غالب همت" يقوم بالتوقيع على الشيكات ... أما الآن، فقد تم تجميد جميع ما كان مسئولا عنه (وكان التجمع الإسلامى بألمانيا قد زالت عنه صفة "الجمعية الخيرية" ... تلك الصفة التى لطالما جاهد فضل يزدانى لاكتسابها فى ستينيات القرن العشرين - إلا أن الأمر لم يكن له علاقة بهجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، إذ جرت تلك الوقائع فى عام ١٩٩٨ حين فشل المسئولون بمسجد ميونيخ فى استيفاء البيانات اللازمة لتمديد أجل تلك الصفة). هذا، وقد أوردت مجلة "الإسلام" لقاء حاول فيه "أحمد خليفة" إيراد مبررات لقيام "غالب همت" - الذى لم يكن يحيا فى ميونيخ لسنوات طويلة - بإدارة شئون التجمع. وبعد نحو ثلاثة عقود بأكملها، عمد "همت" إلى الاستقالة فى الثالث عشر من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٢ .

وبعد سنوات قلائل، وقعت الهجمات الإرهابية التى هزت كلا من "مدريد"، و"لندن" ... حيث أصيب المحققون فى تلك الأحداث بالدهشة لكون المشتبه فيهم من

صغار السن الذين ينتمون إلى الجيل الثاني والجيل الثالث من المسلمين الذين ولدوا في أوروبا. ففي أغلب الحالات، شرع هؤلاء يتلمسون بدايات مسيراتهم كراديكاليين من خلال احتضانهم لأيديولوجية جماعة "الإخوان المسلمين" إذ انجذبوا إلى رسالتها الطوباوية. إن الصلات التي ربطت ما بين "الجماعة" والإرهابيين قد بدت وكأنها إيذان بطي صفحة "الإخوان" إلى الأبد ... فمسجد ميونيخ قد زايلته ملامح الهيمنة والزعامة، أما رموزه فقد دينوا بتهمة الإرهاب ... وهكذا - بدت قاعدة انطلاق "الإخوان المسلمين" الأوروبية على شفا جرف هار، إذ كانت قاب قوسين أو أدنى من نزاع بات يتهددها ... إلا أن ذلك لم يقع. فبمثل ما كانت عليه الحال في الخمسينيات، أخذ نفور الحكومات الغربية من "الإخوان المسلمين" يستحيل هوسا وافتتانا ... وبذا صارت فصائل الإسلام الديكتاتورية المعادية للغرب صرعة أيما صرعة، فإذا كان افتتان "الخمسينيات" بهدف محاربة الشيوعية، فإن افتتان "اليوم" هو بغرض دحر الإرهاب واستئصال شأفة التطرف.